

غربة الحكم عن الشعب والأحداث

لقد تابع العالم بأسره في الأسبوع الفائت أخبار الغارات الأميركية على العراق، كما تابع في الوقت ذاته ردود الفعل عليها، والتي تنوّعت بالوسيلة والمضمون، فمنهم من أيدها حتى المشاركة، ومنهم من استنكرها حتى وصفها بالجريمة وتهديد السلام العالمي.

وقد غطت جميع وسائل الإعلام الحدث ومفاعيله والمواقف التي تبعتها، فلم يمنعها أحد من القيام بواجبها الإعلامي، كما أن أحداً لم يفرض عليها الاجتزاء والتحوير.

متظاهرون في لندن وآخرون في واشنطن ونيويورك حملوا يافطات منددة، بشعارات تعتبر الأقسى بحق الحكام، كتلك التي حملت كلينتون إلى الجحيم وبلير إلى الجحيم، ولم تتصدّ الشرطة البريطانية للمتظاهرين، كما أن الشرطة الأميركية لم توقف أحداً منهم. في نفس اليوم، مع فارق الوقت فقط، كانت المحكمة العسكرية في بيروت تحاكم نخبة من الشباب اللبناني لا ذنب لهم سوى محاولتهم تقديم عريضة احتجاج إلى محطة تلفزيونية ألغت مقابلة تحت ضغط وزير الإعلام.

وزير، ونعم الوزراء، يعتبرون أنفسهم خطّ الدفاع الأول عن الاحتلال السوري ومصالحه، متجاهلين أنهم وزراء لبنانيون وليسوا ببادق الخط الأول في جيش المخابرات السوري.

هؤلاء الشباب ضربوا وأوقفوا ثم أحيلوا إلى المحكمة، وسواء جرت المحاكمة أمام العسكر أو أمام المدنيين فالخطأ هو في المحاكمة أصلاً قبل أن يكون في صفة القائم بها.

ويبدو مذهلاً كيف يستطيع اللبناني أن يستنكر الجرائم على الآخرين ولا يمكنه استنكار الجرائم الواقعة عليه، كما لا يحقّ له الدفاع عن نفسه.

وكيف يمكن أن يتضامن مع الآخرين من أجل تحرير أرضهم وحقوقهم الإنسانية، ولا يحقّ له أن يكون قادراً أن يعبر عن حقوقه الطبيعية.

وقد استلحقت الحكومة نفسها فألغت قراراً يمنع التظاهر كان ملغياً بحكم الواقع الذي فرضه الطلاب. وحتى لا يؤخذ الرأي العام بحيلة هذا الإلغاء، نوضح بأن الغاية من التظاهر كانت للاحتجاج على الحظر التلفزيوني المفروض على المعارضة وعلى حرية التعبير، فالسماح إذاً بوسيلة الاحتجاج لا يعني إطلاقاً بأن الحكومة احترمت، أو أنها ستحترم الحريات العامة المكرّسة في الدستور. ومشكلة التعبير الحرّ تكمن في نفسية المسؤولين المعقدة من قيم فقدوها فكرياً وقولاً وعملاً.

فالعبد في موقع السلطة لا يستطيع سماع الصوت الذي ينادي بالحرية.

والذي ديست كرامته بجزمة الاحتلال لا يستطيع رؤية من يرفس برجله هذه الجزمة.

ومن يحمي نفسه بجيوش غريبة تريعه المطالبة بالسيادة.

ومن يقصّر عن اتخاذ قرار، يصيبه مسّ من الجنون إذا رفع الشعب شعار الاستقلال.

إنّ مواقف التيار الوطني الحرّ، التي تعزز السلم الأهلي وتشدّ أواصر الوحدة الوطنية وترفض الاحتلال، تخرق السقف الذي فرضه النظام السوري على لبنان.

إنّ هذا الحكم القاصر الذي يتهرّب من تحمّل المسؤولية والخروج من مرحلة القصور، سيذهب إلى الجحيم حتى لو لم يرفع المتظاهرون ضده هذا الشعار.